التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مدينة تازة على عهد الحماية ١٩١٤ - ١٩٥٦

أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر

إعداد: جلال زين العابدين
إشراف: أ. د. سمير بوزويتة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
المغرب ٢٠١٣

عرض
د. جلال زين العابدين
أستاذ التعليم الثانوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
تاونات – المملكة المغربية

تعتبر مرحلة الحماية الفرنسية محطة مهمة في تاريخ المغرب المعاصر، لما تركته من تأثير في مسار المغرب المستقل في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد حظيت القضايا التاريخية الكبرى لهذه المرحلة كالتاريخ السياسي والعسكري بنصيبها من البحث والدراسة، بينما لم يحظ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي إلا بالنزر اليسير من البحث الأكاديمي. واعتبارًا لما يتركه الماضي على الحاضر، والحاضر على المستقبل من بصمات، فإن معرفة الماضي الاقتصادي والاجتماعي لأي مجتمع، تشكل اللبنة الأساسية لبناء الصرح المعرفي بخبايا الحاضر بمختلف جزيئاته، وامتلاك أدوات تحليل معالم الغد. استنادًا إلى هذه الاعتبارات التاريخية والمستقبلية ارتأينا أن نُسْهم في تسليط الضوء على تاريخ إحدى المدن المغربية التي أولتها إدارة الحماية أهمية خاصة نظرًا لمكانتها الاستراتيجية.

أهمية البحث في التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة على عهد الحماية

يشكل التحول والعمليات الانتقالية من مستوى إلى مستوى آخر السمة البارزة للمجتمعات الإنسانية منذ وجودها، إلى درجة أصبحت معها هذه العمليات تتخذ شكل مبدأ أساسي يحكم حياة المجتمعات في مختلف المجالات وعلى مختلف الأصعدة. وتجد المجتمعات الإنسانية نفسها- طبقا لذلك - مندرجة كليًا أو جزئيًا في عمليات انتقال وحركات مستمرة و"منخرطة في الحركة التاريخية، وذلك بهدف تغيير ذاتها وأفرادها ومحيطها والمجتمعات المرتبطة بها"، وخاضعة بشكل مستمر لقوى داخلية وخارجية تقوم بتغيير توجهها وقبلها، وتتخذ هذه العمليات الانتقالية أشكالاً ونماذج مختلفة ومتباينة في حدتها ومدتها.[١]

إن موضوع التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة على عهد الحماية، يأخذ أهميته من ارتباطه بالإشكالية المركزية التي نسعى إلى تفكيكها وتركيبها خلال فصول هذه الدراسة. ويقتضي منا الحديث عن "التحول" أولاً التأصيل لهذا المصطلح من الناحية الدلالية؛ هكذا فإننا نجد أن الحقل الدلالي للفظ التحول يقدَّم في اللغتين العربية والفرنسية أشمل من مفهوم التغير، بحيث جاء في لسان العرب "بأنه" تنقل من موضع إلى موضع"،[٢] وفي معجم Le petit Robert نجد مصطلح (Mutation) يعني "تبدلاً عميقًا ومستمرًا".[٣] يبدو لنا أن مصطلح "التحول" حسب المعجمين يأخذ معنى عامًا وشاملاً، أي التبدل من حال إلى حال وفق سياق ينضبط في قوانينه الداخلية لسيولة زمانية ذات أبعاد لا تنفصل إحداها عن الأخرى؛ بمعنى أنه تفاعل واستمرارية في البنية المعنية بزمن هذا التحول، مع ملاحظة أن هذا التحول قد يعني القفز والسقوط كما جاء عند الزمخشري.[٤] وقد يعني الانتقال من الاستواء إلى العوج كما جاء في القاموس المحيط؛[٥] أي أن التحول أو التبدل لا يكون دائمًا إيجابيًا ووفق ما نرغب فيه.

ولذلك فإنه حينما اعتمدنا مصطلح التحولات فقد جاء ذلك تلبية للضرورة المنهجية التي تتطلبها الإشكالية المطروحة، أي دراسة الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة على عهد الحماية، ومحاولة رصد ما لحق بها خلال فترة زمنية معينة، وما انضاف إليها

(1)ROCHER (Guy), ***Le changement social, Introduction à la sociologie générale***, tome 3, Edition Points, Paris, 1978, p.78.

(٢) ابن منظور (جمال الدين)، **لسان العرب**، ج 11، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.١٨٩.

(3) ***Le petit Robert***, *Dictionnaire de la langue française*, Paris, 1993, p.1641.

(٤) الزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر)، **أساس البلاغة**، دار الفكر، ١٩٧٩، ص. ١٤٨.

(٥) الفيروز أبادي (مجيد الدين)، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد سليم العرقوسي، طبعة فنية منقحة مفهرسة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، بيروت، ٢٠٠٥، ص.٩٨٩.

كذلك، وذلك من خلال مستويين زمنيين هما المحددان لهذه التحولات التي لحقت بالمدينة، والمتجلية فيما قبل إعلان الحماية وما بعدها، وبالتالي فإن التحول كمفهوم يحمل معايير التبدل المستمر في الأشياء، وفي التعامل مع هذه الأشياء، وبمعنى أدق إن التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة، يجب تناولها خارج أي سياق زمني يجر إلى القطيعة، أو إلى أي تعامل ميكانيكي مع المؤشرات الدالة على هذه التحولات، وخصوصًا في جانبها الزمني.

لقد حاولت الأطروحة أن تبين مؤشرات الاتصال والانفصال بين ما قبل إعلان الحماية وما بعدها، تطلعا وخدمة للدلالة المركزية التي يأخذها مفهوم التحولات كبنية مختلفة من حيث نوعيتها، وحجمها، وتداخل فتراتها التاريخية، على اعتبار بطء التاريخ الاجتماعي الذي يؤثر بوثيرة حركته في تشكيل نسق معين خلال لحظات تطوره، للناس ولعلاقتهم بفضائهم الخاص والعام.

وكان اختيارنا للحدين الزمنيين (١٩١٤- ١٩٥٦) نابعًا من ضرورات كرونولوجية ومنهجية، فمثلما كانت سنة ١٩١٤م سنة حاسمة في تاريخ المدينة، لأنها شكلت نهاية حقبة من الصمود في وجه الأطماع الاستعمارية، فإنها مثلت كذلك بالنسبة للفرنسيين سنة تحقيق حلم الربط بين الغرب والشرق، أي تونس بالمغرب عبر الجزائر، وذلك في إطار ما يسمى بـ "إمبراطورية شمال افريقيا". أما الحد الثاني فيرمز كما هو معلوم إلى نهاية مرحلة الحماية التي تعرضت فيها المدينة- والمغرب بشكل عام- لاختلالات بنيوية غيرت من وظائف وأولويات اقتصادها، وتأثرت فيها عناصر المجتمع ومكوناته. فكانت مرحلة (١٩١٤- ١٩٥٦)، عنوانًا بارزًا لتحولات اقتصادية واجتماعية كان لها الوقع البالغ ليس خلال هذه الحقبة فحسب، بل حتى بعد استقلال المغرب.

إشكالية الدراسة

تتمحور هذه الدراسة حول تحديد الإشكالية المتمثلة في دراسة التأثير الذي أحدثه التدخل الاستعماري بالمدينة على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، ومحاولة رصد ما لحق ذلك خلال هذه الفترة من تحولات. وبما أن مدينة تازة شكلت محور اهتمام إدارة الحماية نظرًا لأهميتها الاستراتيجية، كان استقرار المستوطنين بها كبيرًا، لذلك كانت حدة تأثيرهم وتدخلهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية تزداد بارتفاع عددهم وعدد نشاطاتهم. وهكذا فدراسة التحولات التي تعرضت لها المنطقة يشكل خطوة مهمة لفهم واستيعاب حجم التحديات التي واجهت المجتمع المغربي في الماضي القريب الذي لانزال امتداداته تؤثر في حاضرنا. وقد تفرعت عن الإشكالية المركزية مجموعة من الأسئلة، وذلك من قبيل:

- ما الوضعية والصورة التي كان عليها المشهد الاقتصادي بتازة قبيل الحماية؟ وما أوجه التحولات التي طرأت على قطاعاته؟ وما الأساليب التي اعتمدتها إدارة الحماية لتحقيق أهدافها؟

- كيف نجحت إدارة الحماية في اختراق بنيات المجتمع التقليدي؟ وما بعض معالم الانعكاسات الاجتماعية التي عرفتها تازة في ظل التواجد الفرنسي؟

إن تعدد وتنوع القضايا التي يطرحها موضوع الدراسة تستلزم بالضرورة وفرة المادة الوثائقية والمرجعية، وذلك قصد تكوين صورة شمولية عن الواقع التاريخي لمغرب الحماية.

مصادر ومراجع الدراسة

اعتمد هذا البحث على مصادر متنوعة، توزعت بين الوثائق والجرائد والمجلات والكتب وبعض الرسائل الجامعية.

ففيما يتعلق بالوثائق، ونظرًا للحالة المزرية التي أصبح عليها أرشيف بلدية تازة، لما تعرض له من تلف ونهب وضياع، فإن استفادتنا ركزت بنسبة كبيرة على الوثائق المحفوظة بقسم الأرشيف بالمكتبة الوطنية بالرباط، وهي وثائق متنوعة ومتعددة المصادر، تتراوح بين التقارير الشهرية للمصالح البلدية، وتقارير لموظفي مصالح إدارة الحماية المتبادلة فيما بينهم، ومحاضر اجتماعات اللجن البلدية، وبين نشرات شهرية تحررها مصالح وأقسام إدارات الحماية. وتصف هذه الوثائق الوضعية الاقتصادية لأنشطة فلاحية، وصناعية، وتجارية داخل مدينة تازة، كما تعطي معلومات عن الحالة الاجتماعية لسكانها كالنمو الديمغرافي، والتعمير، والتعليم، والصحة... إلخ، وكذلك العديد من النصوص التشريعية التي تضم القرارات البلدية التي كانت تنظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة. كما اطلعنا على بعض الحقائب التي لم يتم ترتيبها بعد، وتتعلق بالتعليم والصحة.

وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرًا مما يحفل به الموضوع من أخبار ومعلومات لم يكن ليتأتى إلا بالاعتماد على مجموعة من الجرائد والمجلات، فاطلعنا في هذا الإطار على ما كانت تحمله بعض الجرائد المحلية والجهوية، وهي: جريدة تازة(Taza-Journal)، ومستقبل تازة (L'avenir de taza)، والمغرب الشرقي (Le Maroc Oriental). والتصقنا بالجريدة الرسمية بنسختيها العربية والفرنسية التي أفدتنا كثيرا لما عرض فيها من ظهائر وقرارات تمس المدينة والساهرين على تسييرها، كما اعتمدنا على جرائد أخرى بالعربية والفرنسية مما تردد عليه الإحالة في هذا العمل.

وكان اعتمادنا شبه دائب على ما كان يصدر ببعض المجلات المتخصصة مثل نشرة التعليم العمومي المغربي (Bulletin de l'enseignement public du Maroc)، ونشرة المعهد الصحي المغربي (Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc)، والنشرة الاقتصادية والاجتماعية (Bulletin Economique et Social du Maroc)، ومجلات أخرى. وقد مكننا الاطلاع على هذه المجلات من رصد كثير من مظاهر التحول التي عرفها المجتمع المحلي كجزء من المجتمع المغربي خلال فترة الحماية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وتعزيزًا لهذا الرصيد من الوثائق والمصادر، وبغية استنباط وتتبع ما يمت للموضوع بصلة أو يفسر الجزء ضمن الكل، ارتكزنا في ما كتبناه في هذا الموضوع على بعض الكتب المطبوعة باللغتين العربية والفرنسية، وقد استقينا منها معلومات جمة تتعلق بالتحول الذي عرفه المغرب على عهد الحماية الفرنسية اقتصاديا واجتماعيا، كما اطلعنا على بعض الأطروحات، منها ثلاث دراسات حديثة حول المدينة وتاريخها، وهي أطروحات كل من أحمد توفيق أكومي،[٦] والصغير مبروك،[٧] ومصطفى العرجي.[٨]

المنهج المعتمد

تتوقف طبيعة المنهج المعتمد في دراسة التاريخ على طبيعة الموضوع المقترح للدراسة، ومادامت إشكالية هذه الدراسة تتمحور حول التحولات الاقتصادية والاجتماعية. فقد توخينا اعتماد منهج شمولي في تحليل الوقائع والقضايا، لأن الظاهرة الاستعمارية ظاهرة كلية مست كل مجالات وهياكل المجتمع، وكانت هذه الهياكل مرتبطة فيما بينها ارتباطًا عضويًا، ويؤثر أحدها على الآخر ومن ثَمَّ كان من اللازم الربط بين هذه العناصر. وبما أن طبيعة الوثيقة التي اعتمدنا عليها تتضمن معلومات اقتصادية واجتماعية: إحصاءات، أرقام... إلخ، فقد كان منهجنا في التحليل يعتمد أيضًا على الوصف والتحليل، واعتماد الأرقام في شرح الأحداث الاقتصادية والاجتماعية، والتسلح بأدوات كالملاحظة، والاستقراء في تفسير الأحداث. وحاولنا جهد الإمكان قراءة واستغلال هذه الوثائق فيما يخدم بحثنا بعيدًا عن أي تعصب معرفي، والتعامل مع الوثيقة الاستعمارية بكامل الموضوعية.

محاور الدراسة

انطلاقًا مما وفره لنا الرصيد المرجعي والوثائقي، تم وضع تصور للموضوع ارتكز في تصميمه على فصل تمهيدي، وفصلين رئيسيين يضم كل منهما ثلاثة مباحث أساسية بشكل متوازن. وقد حاولنا في الفصل التمهيدي إبراز أهمية موقع المدينة الاستراتيجي، ومساهمة المدينة في بلورة جزء من تاريخ المغرب السياسي والعسكري، ثم مكانة تازة في مخطط الاحتلال الفرنسي للمغرب والاستراتيجية العسكرية للغزو، حيث اعتبرت السيطرة عليها مفتاحا استراتيجيا يمكن من ربط المغرب الغربي بالمغرب الشرقي، وبالتالي ربط تونس بالمغرب عبر الجزائر، وتشييد الإمبراطورية الاستعمارية في شمال إفريقيا.

وخصصنا الفصل الأول لدراسة التحولات الاقتصادية التي عرفتها المدينة طيلة فترة الحماية الفرنسية، وعنوناه ب"**التحولات الاقتصادية بمدينة تازة على عهد الحماية الفرنسية**"، وحاولنا تفكيك الإشكالية التي يطرحها هذا الفصل من خلال ثلاث مباحث. كشفنا في المبحث الأول عن "**الفلاحة بمحيط تازة على عهد الحماية ومؤشرات التحول**". وأبرزنا فيه الوضعية التي أصبحت عليها الفلاحة "الأهلية" بعد تمركز المستوطنين المزارعين بمحيط المدينة، وسيطرتهم على أجود وأخصب الأراضي الفلاحية المغربية، وكذا سياسة الإهمال والثقل الضريبي التي نهجتها الإدارة الفرنسية، والتي كان من نتائجها تجميد وتفتيت الفلاحة المغربية، رغم أهميتها الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة للسكان الحضريين والقرويين، ومحاصرتها في وضع متخلف على مستوى التقنيات وطرق الاستغلال. وفي مقابل الفلاحة "الأهلية" تطرقنا في هذا المبحث إلى مميزات الفلاحة الكولونيالية، عبر رصد تطور التوسع الزراعي الأوربي، وأنواع الاستيطان الزراعي في علاقته مع حاجيات الاستراتيجية الفرنسية لترسيخ نفوذها، وكذا مختلف أشكال الدعم الذي حظيت به الفلاحة الكولونيالية من إقامة بنيات تحتية ومساعدات تقنية، ونظام المكافآت المتعددة والمتنوعة للمستوطنين المزارعين، وكذلك مختلف أنواع التسهيلات المالية والقروض من القطاع الخاص ومن المالية العمومية، ثم مميزات الإنتاج الفلاحي الأوربي.

وتناولنا في المبحث الثاني من هذا الفصل "**تطور الأنشطة الصناعية بمدينة تازة على عهد الحماية**"، وانصب اهتمامنا على دراسة بعض الأنشطة الحرفية التي كان يمارسها "الأهالي" المغاربة، والآثار السلبية، والتحولات التي لحقت بالحرف التقليدية بعد اصطدامها بالاقتصاد الرأسمالي، وبعض المجهودات التي بذلتها إدارة الحماية لإنقاذ الحرف. كما قمنا بدراسة أهم الأنشطة الصناعية الحديثة التي تركزت في المدينة في ظل الحماية، والتي احتكرتها الرساميل الأوربية عمومًا، والفرنسية خصوصًا، واستفادت من دعم وتشجيع إدارة الحماية التي كانت ترغب في تقليص عبء نفقات الاستيراد، وبناء قاعدة صناعية صلبة لخدمة مصالح المتربول.

وأخيرًا خصصنا المبحث الثالث من هذا الفصل لدراسة "**التجارة والنقل والسياحة بمدينة تازة على عهد الحماية**". كشفنا فيه عن التحولات التي عرفتها التجارة بالمدينة، والتي تغيرت صورتها عما كانت عليه من قبل، حيث ستتقوض التجارة المغربية مقابل نمو وتعملق التجارة الأوربية، التي أصبحت تهيمن على المبادلات التجارية في المدينة، وتغيرت الأطراف المتحكمة فيها من حيث تجارتها كما تبدلت السلع المتاجر فيها، إضافة إلى تغيير وظيفتها بتغيير مستهلكيها وأسواقها التجارية. وأصبحت هذه التجارة أكثر انفتاحا على التجارة الدولية، مما جعلها تتأثر بشكل مباشر بالتغيرات التي تعرفها هذه الأخيرة، خصوصًا الأزمات التي تعرضت لها. وتطرقنا في هذا المبحث أيضًا إلى التحولات التي شهدها قطاع النقل والمواصلات بالمدينة، واستعرضنا تطور الشبكة الطرقية ووسائل النقل البري، وحاولنا

(6) AGOUMY (Ahmed Taoufik) : ***La croissance de la ville de Taza et ses conséquences sur la disharmonie urbaine***, Thèse de doctorat du 3ème cycle, Université François-Rabelais, Tours,1979.

(7) SAGHIR (Mabrouk) : ***la ville de Taza : Recherche d'Histoire et d'archéologie monumentale et d'évolution urbaine***, Thèse de doctorat, Université de Sorbonne, Paris, 1992.

(8) EL ARJI (Mostafa) : ***Immigration rurale et urbanisation à Taza (Maroc)***, Thèse de doctorat du 3ème cycle, Université de Toulouse Le Mirail,1984.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الوقوف عند هذه المنجزات التي كانت تواكب التوسع الحضري للمدينة، إضافة إلى مسألة النقل السككي وأهميته في نقل المسافرين والبضائع بطريقة منتظمة وسهلة، ثم تطرقنا إلى قطاع السياحة الذي أضيف في مرحلة الحماية الفرنسية إلى اقتصاد المدينة كمورد آخر للمعمرين الذين كانوا يدركون أهمية الاستثمار في هذا المجال المتميز بكونه قطاع تجارة وصناعة وخدمات في آن واحد، مستغلين المؤهلات الطبيعية والتاريخية التي تزخر بها المدينة ومحيطها لضمان موارد مكملة لاقتصاد المدينة.

أما الفصل الثاني فقد تناول "**التحولات الاجتماعية التي عرفتها تازة طيلة فترة الحماية الفرنسية**"، وفككنا قضاياه من خلال ثلاثة مباحث. أفردنا المبحث الأول لدراسة "**ساكنة مدينة تازة على عهد الحماية**"، تناولنا فيه العناصر المكونة لساكنة تازة. وتمكننا عبر دراسة الأرقام الواردة في الإحصاءات السكانية التي نظمتها إدارة الحماية بالمغرب من تتبع الارتفاع الذي شهدته ساكنة المدينة، وحاولنا إبراز أسباب التطور الديموغرافي، وركزنا أساسا على دور الهجرة القروية التي حاولنا تبيان أسبابها وانعكاساتها على المدينة.

وعالج المبحث الثاني "**التعمير بمدينة تازة على عهد الحماية**"، وحاولنا أن نوضح فيه مميزات المدينة القديمة، ثم مختلف التحولات التي شهدتها عقب التدخل الاستعماري، أبرزها تكريس الوظيفة العسكرية للمدينة القديمة بتشييد مجموعة من الثكنات استحوذت على الكثير من العقار ومنعت أي توسع للمدينة، وسن إدارة الحماية لإجراءات عدة بهدف المحافظة على المعالم التاريخية للمدينة العتيقة. كما تطرقنا في هذا المبحث إلى التوسع المعماري لمدينة تازة على عهد الحماية، بدراسة مراحل تطور المدينة الجديدة، التي جسدت ميدانا لتطبيق أحدث المبادئ المعمارية وأكثرها دقة، حيث أشرفت المصالح البلدية على تأثيث الهيكل العمراني للمدينة الجديدة بخلق مجموعة من التجهيزات والخدمات الضرورية شملت بناء مختلف شبكات الصرف الصحي، والكهرباء، والماء الشروب، والطرق الحضرية، وتقديم خدمات إدارية وتربوية وصحية وترفيهية جديدة، كما أبرزنا نشأة الأحياء الصفيحية الناتجة بالأساس عن تخلخل البنية التحتية المعمارية القديمة، أضف إلى ذلك مخلفات حركية الاستقطاب الذي شكلته مدينة تازة كمركز حضري وسط محيطها.

وتناول المبحث الثالث الذي عنوناه بـ" **السياسة الأهلية بمدينة تازة وبعض محددات التحول الاجتماعي على عهد الحماية** "، دراسة بعض مظاهر السياسة الأهلية التي نهجتها إدارة الحماية الفرنسية، ونخص بالذكر السياسة التعليمية التي وظفتها الإقامة العامة لاختراق المجتمع المغربي، وصناعة شرائح اجتماعية مهجنة تسهل عملية التوغل، ولها قابلية الاندماج أكثر في المجتمع الاستعماري. وقد نجحت هذه السياسة فعلاً في اختراق الأسر المغربية، وأجبرتها على الانخراط في مسلسل التغيير، ولا أدل على ذلك تعليم البنات الذي شكل تحولاً مهما في حياة المجتمع. ثم السياسة الصحية التي اعتبرت على غرار التعليم، نوعا آخر من أنواع التسرب السلمي داخل المجتمع المغربي، وذلك بتوظيف الطبيب والخدمات الطبية في التغلغل عوض العمل العسكري. وبصرف النظر عن التوظيف الاستعماري لهذه الخدمات، فقد أدت السياسة التي نهجتها إدارة الحماية في المجال الصحي إلى تحسن ملموس للأوضاع الصحية بعد الانحسار النسبي للأوبئة والأمراض الفتاكة، وظهور خدمات علاجية ووقائية مثل التلقيح والمراقبة الطبية للمومسات. وفي الأخير تطرقنا إلى بعض محددات التحول الاجتماعي ركزنا فيه على التحولات التي طرأت على النسيج الاجتماعي التقليدي الذي تأثر جراء المتغيرات التي رافقت نظام الحماية، بحيث شكل التحرر التدريجي للمرأة بفعل بداية انتشار التعليم، وخروجها إلى العمل بسبب فرص الشغل التي خلقها المعمرون، وانهيار أوضاع شرائح اجتماعية عريضة وخاصة فئة العمال، وانتشار البطالة في صفوف الساكنة، وتغير الذوق الاستهلاكي للمجتمع، إحدى أبرز التحولات التي طرأت على هياكل المجتمع المحلي إبان فترة الحماية.

وفي الأخير يمكن القول: إنه لقد حاولنا على امتداد هذه الدراسة أن نلامس التحولات التي شهدتها المدينة من خلال قراءة وثائق الأرشيف الفرنسي وتحليلها، ومحاولة مقارنة ما جاء فيها بما يوجد في مدن أخرى كلما أمكنت المقارنة للتعرف على خصوصية المدينة أو شمولية ظاهرة معينة لكل المجتمع المغربي، مما سهل عملية المساءلة التي يمكن أن تتطلبها دراسة فترة ومرحلة تاريخية يلفها الغموض أكثر فأكثر كلما ازداد اتساع الهوة الزمنية التي تفصلنا عنها، مع الوعي بأن هذه المساءلة تظل من خلال المادة المرجعية ملتزمة بالإطار الذي ساير إنتاج وخلق التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة.

وأخذت دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تازة قيمتها العلمية وراهنيتها، من خلال النظر إليها من داخل إطار زمني مقارن بين الحالة التي كانت عليها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة قبل مجيئ الاستعمار الفرنسي، وبين مرحلة الحماية، فذلك أتاح للدراسة التمحيص في تمفصلات الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، وضبط مواطن الاتصال والانفصال فيها. فعندما تناولنا خلال فصول هذه الدراسة مظاهر التحولات التي عرفتها مدينة تازة إبان فترة الحماية (١٩١٤-١٩٥٦)، تبين لنا بالملموس إيقاع تحول الأشياء والناس بالمجال المدروس سواء في علاقاتهم السوسيو- اقتصادية بالمعطيات التي فرضتها طبيعة المرحلة، أو من خلال تعاملهم مع متطلبات هذه الفترة.

لقد انطلقت السلطات الفرنسية بمدينة تازة- كما هو الشأن في باقي المدن المغربية- من استراتيجية تنبني على إلغاء كل ما يعرقل أهدافها، أو على الأقل خلخلته بهدف احتوائه وتوجيهه مرحليا خدمة لمصالحها، وفي الوقت نفسه تطوير وتكييف كل ما يضمن لها تحقيق المزيد من الإنجازات والمكاسب، ويقلل من قيمة أي احتجاج أو

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

معارضة. وتطلب تحقيق هذه الأهداف الاستناد على سياسة زاوجت بين الممارسة التقليدية في السلوك والمعاملات والتسيير لإضفاء نوع من المشروعية على تواجدها كالمحافظة على معالم وخصوصيات المدينة العتيقة للظهور بمظهر المحترم لثقافة وهوية الأهلي، والممارسة العصرية التي اقتضتها ضرورة تكييف الواقع الاقتصادي والاجتماعي خدمة لمصالحها الكولونيالية.

إن دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدينة قد سمحت بتتبع مظاهر التعايش أو التصادم بين الثابت والمتحول في الأحوال والظواهر الاقتصادية الاجتماعية على ضوء السياسة الاستعمارية وحصيلتها. فالتحولات لم تكن مقتصرة على مجال دون الآخر، بل شملت كل الميادين دون استثناء، مع احتفاظ بعض المجالات بخصوصيتها نظرًا لحساسيتها في النسق العام الذي يؤطر الشبكة الاجتماعية في تازة. فالأرقام التي تحتفظ بها وثائق الأرشيف الفرنسي هي دليلنا في هذه الخلاصات، حيث أصبح من الصعب الحديث عن سلبيات عناصر هذه التحولات التي أحدثتها إدارة الحماية أو عن إيجابياتها. فالتعليم مثلاً أصبح مدخلاً اختراقيًا بالنسبة للفرنسيين، في حين شكل بالنسبة للأهالي ممرًا نحو بناء نخبة جديدة على حساب نخبة قديمة مرتبطة بالتعليم التقليدي. كما أن السياسة الأهلية للإقامة العامة، ظلت تؤمن بأن قطاع الصحة هو الآخر يضمن لها حضورًا بالمجال، ويؤمن علاقتها مع السكان ويغير من اعتقاداتهم اتجاهها، لكن هذا الوجه السلبي يقابله جانبه الإيجابي، حين يقضي على مجموعة من الأوبئة والأمراض، وبذلك أصبح التعليم والصحة قناتين ضروريتين بالنسبة للفرنسيين لإحداث أي تغيير أو تحوير في تدبير الملف الاجتماعي.

وإذا كان الشق الاجتماعي قد خضع لمجموعة من المقاييس النظرية والتطبيقية التي يؤطرها الفكر الكولونيالي الفرنسي، فإن تعاطي الإقامة العامة مع الوضع الاقتصادي، لم يسلم هو الآخر من رؤيتها البرغماتية، حيث ظل الفرنسيون بمدينة تازة متحفظين على إشراك الأهالي في برامج التنمية التي يستفيد منها المعمرون الأوربيون، بل أصبح هؤلاء الأهالي خاضعين لمنطق جديد في التعامل مع وسائل الإنتاج، وكيفية استغلالها من خلال الترويج لتقنيات وآلات جديدة تجاوزت آليات اشتغالهم، وشمل الأمر أيضًا الجانب الاستهلاكي لدى سكان تازة، من خلال إدخال منتوجات جديدة مستفيدة من الطرق والسكك الحديدية، ومن التدخل في تسيير الأسواق والمعارض.

وقد أدت السياسة الاقتصادية للإقامة العامة في تازة، إلى خلق أشكال اقتصادية جديدة داخل المدينة من قبيل الاهتمام بالمجال السياحي، وإنشاء بعض المصانع والشركات التجارية التي جاء ازدهارها اتباعًا على حساب الحرف التقليدية التازية التي بدأت تنزوي في أركان المدينة العتيقة، بناء على افتقارها للأسس الذاتية التي تمنحها القوة على المنافسة والحفاظ على مكانتها. وعلى هذا الأساس شكل المعطى الاقتصادي، القناة الأوضح في إحداث عناصر التحول في البنيات التقليدية بالمدينة دون القضاء عليها، والاكتفاء بتهميشها ليكون مآلها الموت البطيء. ولم يقتصر الأمر على هذه الجوانب، بل ستمس قطاعات أخرى، ومن أهمها الفلاحة بمحيط المدينة التي تعرضت بفعل الوجود الفرنسي إلى تحولات عميقة، أعادت هيكلة بناها الإنتاجية وفق مقتضيات السوق الفرنسية، مما أعاق أي إمكانية تطورها لصالح الأهالي. ونتج عن هذه الأشكال الجديدة من الاستغلال ظهور تناقضات اجتماعية عميقة مست الأسر المغربية، وأعادت تصنيف المجتمع المحلي حسب المهن والدخل ومستوى المعيشة. كما أسهمت في ظهور عادات وظواهر اجتماعية لم تكن معروفة في الماضي أو كانت قليلة الانتشار.

وعلى الرغم من أن هذه التحولات بشكليها الاقتصادي والاجتماعي، تجعل الدراسات تميل إلى إظهار الجوانب السلبية أو الإيجابية، فقد حرصنا من خلال هذا البحث على الهروب إلى موقع يجعل عملية المناولة تنفلت من مجال الأحكام القيمية، إيمانا منا بأن الدراسة تتطلب القفز عن هذه الطروحات، لأنها تشوش على أي عملية مراقبة لصيرورة هذه التحولات في صعودها ونزولها، وفي وثيرتها وإيقاعها خلال الفترة المدروسة، الأمر الذي دفعنا إلى محاولة الالتزام بدراسة هذه التحولات، باعتبارها تحدد الانتقال من بنية إلى أخرى عبر عملية موجهة نحو تغيير الأنساق الاقتصادية والاجتماعية، وخلق أوضاع جديدة من حيث شكلها التنظيمي وسيرها العام، طبقًا لمعايير ودرجة عوامل هذه التحولات المسؤولة عن خلق حالة اللاتطابق بين مرحلتي ما قبل وما بعد.

يتضح إذن، أن هذا العمل يعني الانتصار أكثر لتعميق الدراسة حول التحولات التي شهدتها المدينة على المستويين الاقتصادي والاجتماعي خلال فترة الحماية الفرنسية، كما يمكن أن يشكل منطلقًا لدراسات أخرى مثل دراسة المنظومات التي وضعتها سلطات الحماية للتسيير والتهيئة والاستغلال ونخص بالذكر التنظيم الإداري وتفعيل السياسة الأهلية، على أساس أن دراسة مثل هذه المواضيع ستساهم في إثارة إشكاليات جديدة تتناسل عبرها أسئلة تجعل من ماضي المنطقة وحاضرها موضوعها الأساسي.

وعليه فإن اقتحام فترة الاستقلال وما تحمله من إشكاليات التاريخ الراهن يكمل الصورة العامة، لمظاهر الاستمرارية والتحول من خلال الإجابة على بعض الأسئلة، من قبيل:- هل تمكنت فترة الحماية من تجذير عناصر التحول بالمدينة والحفاظ عليها حتى بعد الاستقلال؟ - ما هي مواطن الاتصال والانفصال ما بين الفترة الزمنية ذات الأبعاد الثلاثة: ما قبل الحماية، إبان الحماية، فترة الاستقلال؟

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449